

التحرير والتنوير

ومنه قوله تعالى (ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطؤوهم) فإن أرض بني النضير كانت مما أفاء الله على رسوله من غير إيجاف .

(يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعن وأسرحن سراحا جميلا [28] وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكم أجرا عظيما [29]) يستخلص مما ذكره ابن عطية رواية عن ابن الزبير ومما ذكره أبو حيان في البحر المحيط وغير ذلك : أن وجه اتصال هذه الآيات بما قبلها أنه لما فتحت على المسلمين أرض قريظة وغنموا أموالهم وكانت أرض النضير قبيل ذلك فيئا للنبي صلى الله عليه وسلم حسب أزواج رسول الله أن مثله أحد من الرجال إذا وسع عليهم الرزق توسعوا فيه هم وعيالهم فلم يكن أزواج النبي E يسألنه توسعة قبل أن يفى الله عليه من أهل النضير وقبل أن يكون له الخمس من الغنائم فلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم جعل لنفسه ولأزواجه أقواتهم من مال الله ورأين وفرة ما أفاء الله عليه من المال حسبن أنه يوسع في الإنفاق فصار بعضهن يستكثرنه من النفقة كما دل عليه قول عمر لحفصة ابنته أم المؤمنين " لا تستكثري النبي ولا تراجعيه في شيء وسليني ما بدا لك " . ولكن الله أقام رسوله صلى الله عليه وسلم مقاما عظيما فلا يتعلق قلبه بمتاع الدنيا إلا بما يقتضيه قوام الحياة وقد كان يقول " ما لي وللدنيا " وقال " حبيب إلي من دنياكم النساء والطيب " . وقد بينت وجه استثناء هذين في رسالة كتبتها في الحكمة الإلهية من رياضة الرسول E نفسه بتقليل الطعام .

وقال عمر : " كانت أموال بني النضير مما أفاء الله على رسوله مما لم يوجب المسلمون عليه من خيل ولا ركاب فكانت لرسول الله خالصة ينفق منها على أهله نفقة سنتهم ثم يجعل ما بقي في السلاح والكراع عدة للمسلمين " . وقد علمت أن أرض قريظة قسمت على المهاجرين بحكم سعد بن معاذ فلعل المهاجرين لما اتسعت أرزاقهم على أزواجهم أمل أزواج النبي صلى الله عليه وسلم أن يكن كالمهاجرين فأراد الله أن يعلمهن سيرة الصالحات في العيش وغيره . وقد روي أن بعضهن سأله أشياء من زينة الدنيا فأوحى إلى رسوله بهذه الآيات المتتابعات . وهذا مما يؤذن به وقع هذه الآيات عقب ذكر وقعة قريظة وذكر الأرض التي لم يطؤوها وهي أرض بني النضير .

وإذ قد كان شأن هذه السيرة أن يشق على غالب الناس وخاصة النساء أمر الله ورسوله صلى الله عليه وسلم أن ينبئ أزواجه بها ويخيرهن عن السير عليها تبعا لحاله وبين أن يفارقهن .

لذا فافتتاح هذه الأحكام بندااء النبي صلى الله عليه وسلم ب (يا أيها النبي) تنبيه على أن ما سيذكر بعد النداء له مزيد اختصاص به وهو غرض تحديد سيرة أزواجه معه سيرة تناسب مرتبة النبوة وتحديد تزوجه وهو الغرض الثاني من الأغراض التي تقدم ذكرها في قوله (يا أيها النبي اتق الله) .

والأزواج المعنيات في هذه الآية هن أزواجه التسع اللاتي توفي عليهن . وهن : عائشة بنت أبي بكر الصديق وحفصة بنت عمر بن الخطاب وأم حبيبة بنت أبي سفيان وأم سلمة بنت أمية المخزومية وجويرية بنت الحارث الخزاعية وميمونة بنت الحارث الهلالية من بني عامر بن صعصعة وسودة بنت زمعة العامرية القرشية وزينب بنت جحش الأسدية وصفية بن حيي النضيرية . وأما زينب بنت خزيمة الهلالية الملقبة أم المساكين فكانت متوفاة وقت نزول هذه الآية . ومعنى (إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها) : إن كنتن تؤثرن ما في الحياة من الترف على الاشتغال بالطاعات والزهد فالكلام على حذف مضاف يقدر صالحا للعموم إذ لا دليل على إرادة شأن خاص من شؤون الدنيا . وهذه نكتة تعدية فعل (تردن) إلى اسم ذات (الحياة) دون حال من شؤونها .

وعطف (زينتها) عطف خاص على عام وفي عطفه زيادة تنبيه على أن المضاف المحذوف عام وأيضا ففعل (تردن) يؤذن باختيار شيء على غيره فالمعنى : إن كنتن تردن الانغماس في شؤون الدنيا وقد دلت على هذا مقابلته بقوله (وإن كنتن تردن الله ورسوله) كما سيأتي .